مجلة كلية الآداب

المجلد الخامس والعشرون

١٩٧١

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبى ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
إلى كلية الآداب

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٧٥

فهـــرس

صفحة

رأى فى نشأة النثر العربى
الدكتور سعيد حسين منصور ١

استغلال الأرض فى مركز رشيد
للدكتور محمد خميس الزوكه ٣٣

العامل الجغرافى وأثره فى نشأة المدن فى أفغانستان
للدكتورة عطيات عبد القادر حمدى ٧٥

الأنموذج فى بحث الاستعارة « تأليف : محى الدين الكافيجى »
دراسة وتحقيق للدكتور عثمان موافى ١٢١

الملامح الجغرافية للصحراء الغربية « فى ج . ع . م »
للدكتور حسن أحمد أبو العينين ١٨٣

رأى فى نشأة النثر العربى

للدكتور سعيد حسين منصور

يعرض هذا البحث لموضوع نشأة النثر الفنى فى الأدب العربى ، وهو الموضوع الذى شغل كثيراً من الباحثين ، غير أن أحداً منهم لم يدل فيه بآراء كثيرة مختلفة كما فعل الدكتور طه حسين فى عدد من بحوثه وكتاباته . لذلك يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على نشأة النثر العربى من خلال تتبع الآراء المختلفة للدكتور طه حسين وتحليلها ومناقشتها .

- ١ -

لعل أول رأى للدكتور طه حسين فى الموضوع هو الذى عرض له فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) ، وكان قبل تناوله قد أراد أن يغير من نظرة القدماء وأنصار القديم كما يقول ، والتى تنص على أن النثر ظهر عند العرب قبل الشعر وكان أغزر منه مادة ، وان كان أسوأ حظاً منه لأنها ضاع قبل أن يتمكنوا من تدوينه ، ولم يسهل عليهم حفظه بالرواية كما سهل عليهم حفظ الشعر وروايته . وبذلك يؤكد الدكتور طه حسين على أن الشعر أسبق فى الوجود من النثر الذى «لا يظهر ولا يقوى عادة إلا حين تظهر فى الجماعة وتقوى هذه الملكة المفكرة التى نسميها العقل وحين تظهر وتشيع هذه الظاهرة الاجتماعية التى نسميها الكتابة» (١) .

وإذ يثبت الكاتب أسبقية ظهور الشعر على النثر ينتقل بعد ذلك إلى نشأة النثر العربى ، ويقسم العرب إزاء ذلك إلى عرب الشمال وعرب الجنوب ، ثم ينفى ما ينسب إلى عرب الجنوب من نثر جاهلى لأنهم لم يكن لهم علم بلغة

---

(١) طه حسين – فى الأدب الجاهلى – القاهرة – الطبعة الثالثة – ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م ص ٣٤٨ ، وراجع كذلك – حافظ وشوقى – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٥٣ ص ٦٥ .

قريش التى وصلنا نثرهم بها فى حين كان لهم لغة أخرى عرفت لنا ووصلتنا نصوص منها . وأما عرب الشمال فالكاتب كذلك يرفض ما ينسب إليهم من نثر ، يرفض ذلك فيما يخص ربيعة والمضريين جميعاً لأنه يرى أن البحث العلمى يقتضى ألا يعتمد على الرواية وحدها للتأكد من صحة نسبة هذا النثر إلى هؤلاء . (١) وهنا نصل إلى السؤال الذى نريده : هل نخرج من ذلك كله برفض فكرة نشأة النثر العربى فى الجاهلية ؟

لا يرفض الدكتور طه حسين هذه الفكرة ، ويستدرك بعد هذه المقدمات فيقول : «ومع ذلك فكل شيء فى تاريخ الأدب العربى يدل على أن قد كان للمضريين نثرما ، بل يدل على أن قد كان قبل الاسلام نثر وصل إلى حد من الرقى لا بأس به .. فقد كان لهم حظ لا بأس به من الحضارة فى مكة والطائف والمدينة ، وكانوا يتخذون الكتابة فى أغراضهم التجارية والاقتصادية ، وكانوا على حظ غير قليل من الاتصال باليهود والنصارى ومجوس الفرس» . إذن فقد توافر الشرطان اللذان وضعهما الكاتب أساساً لظهور النثر عند الجماعة ، ولذلك يقول : «فكان من المعقول أن يدعوهم هذا كله إلى التفكير والروية ، ثم إلى الكتابة واستحداث النثر . وكانوا على حظ من العلم والمعرفة بأخبار الأولين وأحوال الأمم الأخرى ، وكان لهم ألوان أخرى من الفنون كالنجوم والطب وما إلى ذلك . وكل ذلك يكفى ليكون لهم نثر ما . فنحن حين نرفض ما يضاف إليهم من النثر لا نزعم أنهم قد جهلوا النثر جهلا تاماً ولم يعرفوه إلا بعد الإسلام ، وإنما نزعم أن قد كان لهم نثر لم يصل إلينا منه شيء بطريقة علمية قاطعة أو مرجحة .. وكل ما يمكن أن نستخلصه من هذا النثر الذى يضاف إلى الجاهليين إنما هو شيء واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيراً تقليد ما كان للعرب فى جاهليتهم من نثر ، فحفظ لنا صورة ما من هذا النثر الجاهلى دون أن يحفظ لنا نصاً من نصوصه» (٢) .

---

(١) فى الأدب الجاهلى – ص ٣٥١ .

(٢) فى الأدب الجاهلى – ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

النثر إذن عند الدكتور طه حسين قد نشأ فى العصر الجاهلى ، والعرب قبل الاسلام فى رأيه قد توصلوا إلى نوع من الرقى والمعرفة يستلزم ظهور النثر عندهم ، خاصة أنهم قد عرفوا الكتابة التى وإن كانوا قد استعملوها فى شئون التجارة إلا أن هذا لا يمنع من أن يدون بها نثرهم ، ثم ضاعت نصوص هذا النثر ولم يصلنا شيء منها . ويرى الكاتب أن هذا النثر الأدبى شهد نشأة السجع «الذى كان يلتزم فى بعض الخطابات الفنية وفى بعض الرسائل الفنية» (١) التى يبدو فى أسلوبها شيء من سيطرة الأسلوب الشعرى على النثر ، فهو نثر مسجوع لم يتقيد بالوزن وإن كان قد تقيد بالقافية . وبذلك يرى الدكتور طه حسين أن السجع قد أكسب أسلوب النثر وأسلوب الرسائل شيئاً من الفنية ، وأما الخصائص الأخرى لهذا الأسلوب أو سنن الجاهليين فى نثرهم فلا حيلة لنا إلى معرفتها من النثر الجاهلى نفسه ، وإنما «نلمحها فى القرآن ونلمحها فى أحاديث النبى وفى أحاديث الخلفاء وخطبهم» (٢).

نستطيع أن نستخلص من ذلك كما ذكرنا صورة بدت أمام الكاتب للنثر العربى قبل الاسلام تتضح فى هذه الخطابات والرسائل الفنية التى تمثل لوناً من النثر العربى نشأ فى الجاهلية . ولكن ألوان النثر الجاهلى فى رأى الكاتب لا تكاد تتعدى ذلك ، فهو لا يرضى عن الأمثال لتمثل فناً من فنون النثر الجاهلى لأنها «أدب شعبى مضطرب متطور ، يصح أن يؤخذ مقياساً لدرس اللغة ، ومقياساً لدرس الجملة القصيرة كيف تكون ومقياساً بنوع خاص لعبث الشعوب بالألفاظ والمعانى ، ولكن هذا كله شيء والنثر الفنى شيء آخر» (٣) .

ولم يكتف الدكتور طه حسين بإسقاط الأمثال من ألوان النثر الجاهلى وإنما تعدى ذلك أيضاً إلى الخطابة ، لأن «الخطابة العربية فن إسلامى خالص»

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٥٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

وحياة العرب السياسية والدينية والاجتماعية لم تكن تدعو إلى ازدهار الخطابة الجاهلية ، فقد كانت بعيدة عن الحياة المدنية المعقدة كما كان ينقصها الاستقرار والاطمئنان ، وليس معنى هذا أن الكاتب ينكر وجود الخطباء الجاهليين ، ولكنه يرى «أن خطابتهم لم تكن شيئاً ذا غناء» ، «فلا تصدق إذن أن قد كانت للعرب فى جاهليتهم خطابة ممتازة ، إنما استحدثت الخطابة فى الاسلام ، استحدثها النبى والخلفاء ، وقويت حين نجمت الخصومة السياسية الحزبية عند المسلمين» (١) .

وكان الدكتور طه حسين يرى أن النثر الفنى لم يظهر بفنونه المختلفة دفعة واحدة فى الجاهلية ، فإذا كان النثر ينشعب إلى فرعين كبيرين ، يختص الأول بالكتابة والثانى بالخطابة (٢) ، فإن الجاهلية لم تشهد عنده غير نشأة الفرع الأول المتمثل فى بعض الرسائل الفنية ، فى حين أن الفرع الثانى وهو الخطابة لم تتهيأ له أسباب استحدائه إلا بعد الاسلام .

ولكن ، لعل ما يتناسب مع الاعتقاد السائد عن اعتماد العرب على الرواية وقلة التدوين فى هذا العصر وما بعده أن يكون للخطابة نشاط ، ويكون لها ازدهار أكثر من الكتابة ، أو على أقل تقدير أن يكون ظهورها ونشأتها سابقاً على نشأة النثر الفنى المدون . وليس من المعقول أن يعجز النزاع الشديد والخصومة القوية التى طبعت علاقة القبائل بعضها ببعض عن استحداث

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٤ – ٣٥٥ .

(٢) رأى الدكتور طه حسين فى موضع آخر أن يقسم الكلام إلى ثلاثة أقسام ، فيقول : « . . تقسيم الكلام إلى شعر ونثر ليس يكفى بل يجب أن يقسم الكلام إلى شعر وخطابة وكتابة ، وهى التى تعودنا أن نعبر عنها أحياناً بالنثر الفنى فى الكتب والرسائل » (من حديث الشعر والنثر – القاهرة – ١٩٤٣ – ص ٤١ – ٤٢) . فهو بذلك يفصل بين الخطابة والنثر الفنى معتبراً كلا منهما قسماً قائماً بذاته من أقسام الأدب ، ولهذا سبب يرجع إلى رأى آخر سنعرفه بعد قليل يتصل أيضاً بنشأة النثر الفنى . والدكتور طه حسين إذ ينفق فى هذا التقسيم مع رأى للمستشرق الفرنسى مرسيه يريد أن يخالف القدماء والمحدثين فى تقسيمهم الكلام إلى شعر ونثر ، أو منظوم ومنثور (من حديث الشعر والنثر ص ٢١) – وراجع (زكى مبارك – النثر الفنى فى القرن الرابع – القاهرة – الجزء الأول ص ٢٤ – ٢٥) .

الخطابة وإطلاق ألسنة الخطباء فى الجاهلية بفنون من القول البليغ المؤثر ، ولا يعقل أن تقف طبيعة الأخذ بالثأر عند العربى عن إثارة خطب الحث على الحرب والقتال ، كما لا يعقل أن تكون الحياة كلها حرباً وقتالا دون أن يبعث ذلك على خطب الصلح واصلاح ذات البين ، ولا يعقل أيضاً ألا يوجد فى هذا الجو الصاخب خطباء قادرون على المفاخرة والمنافرة فى مجتمع يميل إلى الغلبة والصراع . وأما خطب الوفود والمحافل — وإن كان من الممكن الشك فى نصوصها التى وصلت إلينا فهى بلاشك تدل على بعض موضوعات الخطابة يتفق مع طبيعة الحياة الجاهلية . وقد رأى الكاتب كما ذكرنا من قبل أن النثر الذى يضاف إلى الجاهليين قد حفظ لنا صورة ما من النثر الجاهلى دون أن تحفظ لنا نصاً من نصوصه ، وهذا صحيح ولكنه إن صح أن ينطبق على الكتابة الفنية فهو أشد انطباقاً على الخطابة . والجدير بالذكر أن الكاتب يفرق بين الحوار أو الجدل فى جانب ، والخطابة فى جانب آخر ، ويرى أن الحياة القبلية تدعو إلى الحرار والجدل ولكنها لا تدعو إلى الخطابة . (١) ولكن كيف يحول الحوار بينهم وبين أن يقف أحدهم خطيباً للتأثير فى السامعين ، فيرد عليه الخصم بخطبة أخرى قد تقصر وقد تطول ، وتكون أقوى أو لا تكون (٢) . وأما الحواضر العربية كالطائف والمدينة ومكة — كما عرض الدكتور طه حسين من قبل — فقد كان لها حظ لا بأس به من الحضارة واتصال باليهود والنصارى ومجوس

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٣٥٥ .

(٢) ينسب إلى ابن المقفع فى طول بعض الخطب الجاهلية قوله : « الايجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين فالاكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال ». (البيان والتبيين — القاهرة — ١٣٨٨/١٩٦٨ — الجزء الأول ص ١١٦) . وينسب إلى قيس بن خارجة بن سنان من خطباء الجاهلية قوله : « عندى قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لون تطلع الشمس إلى أن تغرب آمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع ». ويقول الجاحظ : « قالوا : فخطب يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولامعنى » . (البيان — الجزء الأول ص ١١٧) . ولعل هذه الخطبة هى التى سميت العذراء ، (البيان — الجزء الأول ص ٣٤٨) ، وضرب بها الجاحظ المثل فى الطول (الحيوان — القاهرة ١٣٦٢هـ — ١٩٤٣م — الجزء السادس ص ٢٦١) .

الفرس ومعرفة ببعض العلوم وأخبار الأمم . وإذا كان الدكتور طه حسين قد رأى أن «كل الحياة الاجتماعية للعرب قبل الاسلام لم تكن — وإن غضب أنصار القديم — تدعو إلى خطابة قوية ممتازة ، فالحواضر المضرية كانت حواضر تجارة ومال واقتصاد ، ولم يكن للحياة السياسية فيها خطر يذكر ، ولم تكن لهم حياة دينية عملية قوية تحتاج إلى إلقاء الخطب كما تعود النصارى والمسلمون »(١). أقول إذا كان الدكتور طه حسين قد رأى ذلك من أجل أن يثبت أن الخطابة لا تنشأ إلا إذا توافرت لها «الحياة المدنية المعقدة» ، فقد سبق له أن رأى وهو فى معرض تصوير الحياة الجاهلية من خلال تمثيل القرآن لواقعها أن «القرآن إذن أصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذى يسمونه الجاهلى . ولكن القرآن لا يمثل الحياةَ الدينية وحدها ، وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لا نجده فى هذا الشعر الجاهلى ، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدل والخصام أنفق القرآن فى جهادها حظاً عظيما .. وإذا كان العرب أصحاب علم ودين ، وأصحاب ثروة وقوةوبأس ، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها ، وأصحاب اقتصاد داخلى وخارجى معقد ، فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية» (١) .

وهكذا تبدو لنا فى هذين النصين صورتان مختلفتان عن البيئة الجاهلية ، ولكن الواقع أن طبيعة الحياة العربية الجاهلية بصورها القبلية وقسطها من الحضارة ملائمة كل الملاءمة لنشأة الخطابة ، وإذا صح أن يكون للعرب فى الجاهلية معلقات ومذهبات دون أن يكون لهم كتابة فنية فلا يعقل أن يكون لهم هذا الشعر الناضج المتكامل دون أن يكون لهم خطابة ، ولا يعقل أن يكون للقبيلة شاعرها الذى يعدد مناقبها ويهجو أعداءها دون أن يكون فيها السيد الخطيب الذى يحث قومه للذود عنها ويفد على شيوخ القبائل وملوك الإمارات لعرض قضاياها والتحدث عنها

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٧١ - ٧٢ ؛ ص ٧٨ — ٧٩ .

فى أمة عرفت عنها الفصاحة والبلاغة وجاءها القرآن بمعجزة تفحم فصحاءها وتعجز أمراء البيان فيها .

يقول المرزوقى فى معرض التدليل على تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب : « إن ملوكهم قبل الاسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والافتنان فيها ، ويعدونها أكمل أسباب الرياسة ، وأفضل آلات الزعامة . فاذا وقف أحدهم بين السماطين لحصول تنافر أو تضاغن أو تظالم أو تشاجر ، فأحسن الاقتضاب عند البداهة ، وأنجع فى الاسهاب وقت الاطالة ، أو اعتلى فى ذروة منبر فتصرف فى ضروب من تخشين القول وتليينه ، داعياً إلى طاعة ، أو مستصلحاً لرعية ، أو غير ذلك مما تدعو الحاجة إليه ، كان ذلك أبلغ عندهم من انفاق مال عظيم ، وتجهيز جيش كبير » (١) .

إن قول المرزوقى يصور لنا أدق تصوير وجوه رقى الخطابة الجاهلية كما يصور العناصر الفنية فيها ، وأثرها العميق فى المجتمع الجاهلى الذى كان يفوق أثر المال والسلاح ، مما لا يدع مجالا للشك فى أهمية هذا الفن القولى عند العرب وقدره من ناحية ، وازدهاره وتأثيره فى توجيه الحياة الجاهلية من ناحية أخرى . وللمستشرق كارلو نالينو رأى يلقى الضوء على جوانب أخرى من ارتفاع شأن الخطابة فى العصر الجاهلى ، يقول :

«أما فن الخطابة فله عند العرب مقام عال جداً ، فلو جمعنا الأبيات القديمة التى يحمد فيها خطيب لملأنا بضعة صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسى المبنى على الحرية ونوع من مجلس الشورى . فكان رجال كل قوم من أهل الوبر يباحثون أهم أمور القوم فى مجلسهم كما كان كبار أهل مكة يتفاوضون فيها فى دار الندوة المنسوب تأسيسها إلى قصى بن كلاب فكان للخطيب البليغ شأن عظيم . ومن الحرى بالذكر أن الألفاظ التى كان

---

(١) أبو على أحمد المرزوقى – شرح ديوان الحماسة – القاهره – ١٣٧١ هـ / ١٩٥١م – الجزء الأول ص ١٦ .

العرب يعبرون بها عن متولى حكم قوم من أقوامهم، أعنى السيد والأمير عند عرب الحجاز، والقيل فى أنحاء اليمن، إذا بحثنا عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أن معناها الأصلى انما كان القائل أو المتكلم. ثم أثرت فى ارتقاء فن الخطابة سياسة العرب الخارجية، أعنى العلائق بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغسان، فكان حينئذ الخطيب وكيل جميع قبيلته يخطب باسمها فى المواسم والوفود للمفاخرة والمشاجرة والدفاع عن حقوق قومه. فوصف أوس بن حجر منصب الخطيب فى داخل قومه وخارجه حين قال وهو يرثى أبا دليجة فضالة بن كلدة:

أبا دليجة من يكفى العشيرة إذ ... أمسوا من الخطب فى لبس وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا ... لدى الملوك ذوى أيد وأفضال

ولهم عوائد خاصة عند إلقاء الخطب الاحتفالية، وعند أهل المدن الحجازية فى أواخر القرن السادس للمسيح نوع ثان من الخطابة جار فى أمور الدين والأخلاق والزهد، وهو نوع اشتهر به زيد بن عمرو بن نفيل من أهل مكة، وقس بن ساعدة الإيادى النصرانى أسقف مدينة نجران الذى ضرب به المثل فى الفصاحة والبلاغة ..»

من ذلك تتضح لنا عوامل ارتقاء فن الخطابة فى الجاهلية، كما تتضح صورة الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الاسلام، تلك الحياة التى ساعدت على ازدهار ألوان من الخطابة متصلة بشئونهم وعلاقاتهم المتنوعة مع غيرهم من الجماعات الأخرى. ولعل الخطأ فى الحكم على الخطابة الجاهلية ونفى وجودها يكمن فى أن ننظر إلى الخطابة نظرة شاملة لجميع أنواعها أو فروعها وموضوعاتها، فقد تتوافر الظروف لنشأة نوع معين من الخطابة دون أن تساعد هذه الظروف نفسها على إحداث أنواع أخرى، فاذا كانت الحياة الدينية عند عرب الجاهلية لم تساعد على ظهور الخطابة الدينية بالشكل الذى

---

(١) تاريخ الآداب العربية – القاهرة – ١٩٥٤ ص ٨٠ – ٨٢.

ظهرت به فى الاسلام ، فليس ذلك يعنى انعدام ألوان أخرى من الخطابة الاجتماعية تعالج مشكلات المجتمع الجاهلى الذى اختلطت فيه ألوان من العقائد والديانات . وإذا كانت الحياة السياسية عند العرب لم تعرف الحزبية السياسية لينبثق عنها خطابة سياسية، فإن انطباع الحياة الاجتماعية للعرب بطابع العصبية القبلية كفيل أن ينشىء خطابة تنعكس فيها صور العصبيات المختلفة المتطاحنة . بل إن الخطابة السياسية الحزبية التى نشأت بعد الاسلام وازدهرت فيها خطابة للأمويين أو خطابة للزبيريين والخوارج والهاشميين ليست مقطوعة الصلة بالعصبية الجاهلية . فالعصبية القبلية لم تندثر بظهور الاسلام وإنما ارتدت على نحو آخر وظهر ارتدادها أو امتدادها فى ظهور بعض الأحزاب التى تطورت مع تطور الحياة الاسلامية ، فكانت لها مبادئها السياسية المتبلورة ، وكانت لها آراؤها التى تتعارض مع الأحزاب الأخرى، ولم تكن البواعث التى أنشأتها ومزقت أوصالها بعيدة عن الأسباب القبلية التى كانت تفرق بين بعض العصبيات الجاهلية وبعضها الآخر . ثم إذا كان الاسلام أيضاً قد أنشأ لوناً من ألوان الخطابة يتمثل فى موضوع الجهاد فى سبيل الله والحث على قتال المشركين ، فهل يبعد أن يكون ذلك فى بعض صوره امتداداً لخطابة الجاهليين فى الحث على الدفاع عن شرف القبيلة ومكانتها ، ثم اتخذت هذه الخطابة شكلا آخر لا يختلف عن ذلك كثيراً حين تنازعت الأحزاب السياسية الاسلامية فيما بينها وشغلت خطابتها أكثر ما شغلت بحث أنصار كل جماعة على قتال الفئة الأخرى ، ولم يكن هذا القتال عند الكثير من الأحزاب الا صورة من صور الجهاد فى سبيل الله .

عرف الجاهليون إذن ألواناً من الخطابة ، ولا ينبغى أن تكون الأسباب التى منعت من ظهور لون من هذه الألوان أسباباً جامعة تحول دون ظهور فن الخطابة عامة أو تأخر نشأته فى الجاهلية إلى صدر الاسلام كما رأى الدكتور طه حسين . إن نقص لون من ألوان الخطابة لا ينبغى أن يدفع للحكم على الخطابة بشكل مطلق ، فظروف العرب قبل الاسلام لا تحول

بين الخطابة وبين أن تكون فناً جاهلياً، ولكن هذا الفن الجاهلى تشعب واتسعت ألوانه وتعددت موضوعاته مع مجيء الاسلام وظهور الخلافة والخلاف عليها وتطور حياة المسلمين واتساعها ، ثم اكتمل ازدهاره وبلغ غاية الرقى كلما تشعبت سبل الحياة فى الدولة الاسلامية وترامت أطرافها وانقسمت هذه الأطراف على نفسها وتنازعت فيها الآراء السياسية وتباعدت الأفكار الدينية .

— ٢٠ —

عاد الدكتور طه حسين إلى الحديث مرة أخرى عن نشأة النثر العربى فى محاضراته عن النثر فى القرنين الثانى والثالث الهجرى التى وردت فى كتابه «من حديث الشعر والنثر» . ولكن آراءه هنا تختلف كل الاختلاف عما رآه فى «الأدب الجاهلى» ، فالجاهليون الذين كان لهم فى «الأدب الجاهلى» قسط ما من الحضارة (يدل على أن قد كان قبل الاسلام نثر وصل إلى حد من الرقى لا بأس به) و(كان من المعقول أن يدعوهم هذا كله إلى التفكير والروية ثم إلى الكتابة واستحداث النثر) و(حين نرفض ما يضاف اليهم من النثر لا نزعم أنهم قد جهلوا النثر جهلا تاماً ولم يعرفوه إلا بعد الاسلام وانما نزعم أن قد كان لهم نثر لم يصل الينا منه شيء بطريقة علمية قاطعة أو مرجحة) و (كان لهم نوعان من النثر إذا ، أحدهما فنى لم يتحلل من قيود الشعر التحلل المطلق ، والآخر عادى اعتمد على لغة التخاطب أكثر من اعتماده على أى شيء آخر) و (نشأ فيها نوع من النثر لم يتحلل من قيود الشعر كلها ، وانما تحلل منها بعض الشيء ، لم يلتزم فيه الوزن وانما التزمت فيه القافية التزاماً ما ، فنشأ السجع الذى كان يلتزم فى بعض الخطابات الفنية وفى بعض الرسائل الفنية أيضاً) .. هؤلاء الجاهليون قد عدل الدكتور طه حسين رأيه فيهم حين مر على الموضوع نفسه عبر الحديث إلى نثر القرنين الثانى والثالث الهجرى كما قلت . والحديث هنا بطبيعة الحال عن النثر الفنى وحده ، إذ لم يفت الكاتب كما لاحظنا أن يفرق بين النثر

العادى والنثر الفنى ليقول إن النوعين قد وجدا ، وإن النوع الفنى منهما لم يتحلل من قيود الشعر ، وإن منه الخطابات والرسائل الفنية . فالأمر إذن واضح فيما يختص برأيه هذا ، ولكن هذا الرأى قد عدل عنه — دون أن يشير اليه — فى كتابه «من حديث الشعر والنثر» على النحو التالى إذ يقول :

«والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال — مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلى وعشاقه — أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنى» . ويقول : « وإذن فالعصر الجاهلى لم يكن له نثر بالمعنى الذى حددته» (١) . والمعنى المقصود هنا هو النثر الفنى . ويقول : «وإذن فالنثر العربى الذى ليس لغة التخاطب ، ولا الأحاديث العادية ، والذى لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هى عاطفة أو شعور ، بل من حيث هى صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير ، هذا النثر أثر من آثار الحياة الاسلامية الجديدة ، ظهر فى الاسلام ، ولم يكن موجوداً» (٢) . ثم نعرف بعد ذلك أن النثر لم ينشأ لا فى العصر الجاهلى ، ولا فى القرن الأول للهجرة حين يقول : «فأول القرن الثانى للهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النثر الفنى» . (٣) وعلى هذا فإن «نشأة النثر العربى لم تكن بدعاً فى الأمم» (٤) وإنما جاءت نشأته كما يرى طه حسين «ملائمة كل الملاءمة ومطابقة كل المطابقة لما نألفه فى نشأة النثر الذى كان عند الأمم التى لها أدب راق»(٥) . والأمثلة على ذلك تتضح فى نشأة النثر اليونانى ونشأة النثر الفنى عند الفرنسيين .

وإذا وقفنا هنا لنتساءل : إذا كان النثر الفنى قد تأخر لينشأ بعد القرن

(١) من حديث الشعر والنثر — القاهرة — ١٩٥٣ ص ٢٥ .
(٢) الموجع السابق ص ٢٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٨ .

الأول للهجرة ، فماذا يكون القول فى القرآن وما يمثله من نثر فنى ؟ هنا نجد الدكتور طه حسين يلجأ إلى تقسيم جديد للأدب يخرج فيه القرآن من مجال النثر ، فيقول : «ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً إنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم .. فلسنا نستطيع أن نقول إنه نثر ، كما نص هو على أنه ليس شعراً .. وإذن فمن الحق أن نضع القرآن فى مقامه الخاص الذى لا يصح أن يقاس به شىء آخر ، وأن نبحث عن النثر العربى» . (١) والبحث عن النثر العربى بطبيعة الحال لن يخرج بشىء فى دائرة القرن الأول الهجرى وعلى طوله وامتداده ، وأما القرآن فقد فرغ منه الكاتب على هذا النحو بعزله عن مجالى الشعر والنثر كليهما ، ولعل هذا التقسيم الجديد مرتبط بتقسيم آخر سبق أن أشرنا اليه حين عرفنا أن الكلام يقسمه الكاتب إلى ثلاثة أقسام : شعر وخطابة ونثر فنى ، فيفصل النثر عن الخطابة . والهدف من هذا التقسيم هو نفس الهدف الذى ألجأ الكاتب إلى قوله بنظرية الشعر والنثر والقرآن . فالنثر الفنى باعتباره قسما مستقلا من أقسام الأدب منفصلا عن الخطابة يمكن الحكم عليه الآن حكماً مستقلا يؤخر نشأة النثر إلى القرن الثانى ، فلا تنطبق هذه النشأة على الخطابة التى سيقرر الدكتور طه حسين كما سنرى أن نشأتها كانت قبل ذلك ، ولا يحتاج إزاء هذا إلى استثنائها من حكمه على النثر الفنى .

وهكذا تأخرت نشأة النثر العربى إلى القرن الثانى الهجرى ، والأمر الذى لا شك فيه أن هذه النشأة لا تعنى غير النشأة ، فهى لا تعنى التطور أو الارتقاء أو القوة والاتساع والازدهار ، وفرق كبير بين أن ينشأ النثر الفنى فى الجاهلية وبين أن يتأخر لينشأ فى القرن الثانى (٢) . والمعروف

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) يتفق الدكتور طه حسين فى هذا الرأى الجديد مع رأى سبق أن رآه المستشرق الفرنسى « مرسيه » لا فيما يتعلق بأقسام الكلام فحسب — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — بل بتوقيت نشأة النثر العربى كذلك ، وقد نشر الأستاذ « مرسيه » هذه الآراء فى عام ١٩٢٧ ،

(Marcais, Origines de la prose littérature arabe, Sevre Africaine, Nos. 330, 331, 1 er, 2e trimistres, 1927)

— وقد ردد الأستاذ « جيب » هذا الرأى فى مقال نشره فى مجلة (الأدب والفن) بلندن عام ١٩٤٣ وأعاد نشره فى كتابه

Studies on the civilization of Islam, Boston, 1962, p. 237.

أن القرن الثانى فى ميدان النثر العربى مقترن باسم عبد الحميد وابن المقفع ، ولكن الدكتور طه حسين إذ يرى أن القرن الثانى شهد نشأة النثر الفنى لا يرى أن هذه النشأة قد أنشأها كاتب بعينه وأنه نشأ نشأة عربية طبيعية فيقول :

«فى هذا العصر الذى أحدثكم عنه — القرن الثانى للهجرة — ظهر كاتبان يعتقد العرب والمستشرقون أنهما هما اللذان أسسا النثر العربى . وفى هذا كثير من المبالغة ، فلم يؤسس النثر العربى كاتب بعينه ، وانما نشأ نشأة طبيعية ملائمة للشعب العربى الاسلامى » (١). ويقول : «هذا النثر أثر من آثار الحياة الاسلامية الجديدة ، ظهر فى الاسلام ولم يكن موجوداً . هذه الأسباب التى دعت إلى وجوده أسباب طبيعية ، لأن أمة لم تكن أعارت العرب النثر ، بل هى الظروف التى أوجدته . وهو فن دعت اليه حاجة الحياة العربية ، ولذلك يجب أن ننزع من نفوسنا أن العرب استعارت النثر من غيرها من الأمم . فالذين يزعمون أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان مسرفون . ولكن ليس معنى هذا أن النثر نشأ بعيداً عن هؤلاء ، بل كان عربى النشأة ، ولكنه تأثر بهؤلاء ، وتطور بفضل اتصال العرب بتلك الأمم» (٢) .

ليس من شك فى أن النثر العربى قد تأثر بهؤلاء ، وتطور بفضل اتصال العرب بالفرس واليونان ، فهذا كله صحيح ، ولكن التأثر والتطور يأتى دورهما فى المراحل التى تلى مرحلة النشأة . وقد رأى الدكتور طه حسين أن النثر العربى قد نشأ نشأة عربية وكان أثراً من آثار الحياة الاسلامية الجديدة ، فاذا كان ذلك كذلك ، فلماذا تأخرت هذه النشأة — وهى عربية إسلامية — إلى القرن الثانى ، فى حين أن الحياة العربية الاسلامية التى أنشأت النثر العربى كانت قد بدأت قبل القرن الثانى بقرن كامل ؟ والقرن الثانى

(١) من حيث الشعر والنثر ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

الهجرى كما هو معروف لا يقترن بامتزاج العرب بغيرهم من الأمم ، لأن هذا الامتزاج قد حدث قبله ، وانما يقترن بظهور آثار هذا الامتزاج فى جميع نواحى الحياة ، وتبلور مظاهر هذا التأثير فى ميدان الأدب والنثر . وعلى ذلك فلا يصح تأخير نشأة النثر العربى إلى القرن الثانى دون أن تكون هذه النشأة مرتبطة كل الارتباط بأثر الفرس واليونان ، وبذلك لا يمكن أن تكون نشأة عربية خالصة . والدكتور طه حسين يرفض أن يكون ابن المقفع وعبد الحميد هما اللذان أسسا النثر العربى ، ومع ذلك نستطيع أن ندرك أن تفكيره متعلق بالقرن الثانى ونشأة النثر الفنى فيه ، لالشىء الا لشهود هذا القرن فن ابن المقفع وعبد الحميد . يقول :

«وانما الكاتبان امتازا امتيازاً ظاهراً فى هذا العصر حتى أصبحا رمزاً لهذا النثر الذى ليس هو لغة التخاطب ، ولا اللغة العلمية الطبيعية ، ولا اللغة الفلسفية ، ولا التاريخية ، ولكنه نثر فيه شىء من الفن ، وفيه ميل إلى احداث اللذة عند القارىء فوق العناية بتأدية الفكرة ، هذان الكاتبان هما « ابن المقفع» و« عبد الحميد بن يحيى» (١) . ويقول :

«وربما كان من الحق أن أول من أحدث فى نفوسنا لذة الكتابة الفنية فى العصر الاسلامى فى القرن الثانى للجهرة هو عبد الحميد وابن المقفع » (٢) ويقول : «هذان هما الكاتبان اللذان نستطيع أن نعتبرهما عنواناً للكتابة الفنية»(٣) .

قلنا إنه إذا كانت نشأة النثر العربى فى أول القرن الثانى فلا يمكن

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ – ومن الغريب أن يقول الدكتور طه حسين فى مقال له فى كتاب (حافظ وشوقى ص ٦٨) : « متى بلغ النثر العربى أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقى ؟ فى عصر ابن المقفع والجاحظ وأشباههما » . وكأن النثر العربى قد نشأ فى القرن الثانى ، وبلغ فى الوقت نفسه أقصى ما يستطيع أن يبلغ من الرقى عند ابن المقفع . ولكن لم يرد فى مقال الدكتور طه حسين ما نسبه إليه الدكتور زكى مبارك من القول بأن «أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل » . (النثر الفنى فى القرن الرابع حـ ١ ص ٤٩) .

(٣) من حديث الشعر والنثر ص ٤٩ .

الا أن تكون هذه النشأة متصلة بعلمين بارزين هما عبد الحميد وابن المقفع والحديث عن عبد الحميد وابن المقفع لا يمكن الا أن يكون متصلا بأثر الثقافة الفارسية واليونانية ، والدكتور طه حسين نفسه يقول فى موضع آخر : «لولا المترجمون فى العصر العباسى ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ» وعلى ذلك فان نشأة النثر العربى فى القرن الثانى وفى عصر عبد الحميد وابن المقفع ليست الا دليلا على أن النثر العربى لم يكن عربى النشأة . وحديث الدكتور طه حسين عن ثقافة هذين الكاتبين يوضح مدى تأثير الثقافتين الفارسية واليونانية فى نثرهما . يقول عن عبد الحميد : « يختلف الناس فى أن عبد الحميد فارسى الأصل أو من جنسية أخرى ، ويقول أبو هلال انه كان يحسن الفارسية . وعندما أقرأ عبد الحميد وابن المقفع الذى لا خلاف فى أنه كان فارسياً ، وأقارن بينهما ، أرجح أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بالثقافة اليونانية ، وربما كان عالماً بلغتها .. ولعبد الحميد خاصة لغوية أو فنية هى التى تحملنى على أن أرجح أنه كان شديد الاتصال باليونانية .. فهو إذا كتب أسرف فى استعمال الحال . . استعمال الحال على هذا النحو من خصائص اللغة اليونانية ، ومن الأسباب التى يعتمد عليها اليونان فى تحديد معانيهم .. هذه الظاهرة عند عبد الحميد تقوى عندى أنه كان شديد الاتصال باليونانية ، ذلك لأن مدارس الأدب اليونانى كانت منبثة فى الشرق كله ، فى الاسكندرية وغزة وأنطاكية والشام والجزيرة ، وظلت كذلك حتى العصر العباسى ، ولكنها انحصرت فى الأديرة حتى ذهب أمرها فى القرنين الثالث والرابع للهجرة . فليس غريباً أن يكون عبد الحميد قد اتصل باليونان فى مدارسهم بالجزيرة والشام وتعلم اليونانية وأحسنها . يقوى هذا فى نفسى الرسالة التى كتبها إلى ولى العهد والتى تتناول معانى يظهر فيها تأثير الثقافة اليونانية .. والرسالة تنقسم إلى قسمين : القسم الأول نصح من الخليفة لابنه . . ثم إذا فرغ من هذا القسم انتقل إلى نصيحة ولى العهد فيما ينبغى أن يتخذه من تنظيم الجيش ومحاربة العدو . وهو أشبه برسالة فى فن الحرب وتنظيم الجيش . وهذا النحو من

(١) حافظ وشوقى – ص ٤٩ .

الرسائل كان شائعاً فى هذا العصر اليونانى الرومانى . وبعضه ترجم للعرب . وعندى فى هذه الرسالة نص بسيط يدلنى على أن عبد الحميد كان فى هذه الرسالة متأثراً لا باليونانية وحدها ، بل بما كان مألوفاً عند اليونان .. فنظام الجيش هذا ما أشك فى أنه متأثر فيه برسائل الحرب عند اليونان ثم رؤية الجيوش اليونانية التى كان العرب يحاربونها دائماً ، ولا سيما أيام مروان . ومن خصائص عبد الحميد أنه يقسم كلامه إلى فصول ، فكل رسالة من رسائله تنقسم إلى أجزاء .. هذا النوع من تقسيم الكلام نوع يونانى من خصائص النثر اليونانى القديم » (١) .

ويعود الدكتور طه حسين ليؤكد هذه الفكرة فى موضع آخر من بحوثه فيقول فى بحث له معروف عن «البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر» :

«وإذا كنا على يقين من أن ابن المقفع فارسى الأصل ، فنحن لا نعرف شيئاً ما عن أصل عبد الحميد بن يحيى ، بيد أننا عندما نقرأ القليل الباقى من منشآته ، لا يسعنا الا أن نعترف بما (للهيلينية) من الأثر البين فى هذه المنشآت معنى ومبنى . والحق أن عبد الحميد كان أحد كتاب القرن الثانى الذين فهموا (الفصول) كما يفهمها علماء البيان من اليونان . ونفس بناء جملة يظهر تأثراً واضحاً بالهيلينية ، فهو يضع الصفة من الجملة حيث يقتضى لمعنى وضعها ولو أغضب النحاة بذلك بعض الشىء » (٢) .

هذه صورة كاملة نعرف منها تصور الدكتور طه حسين لمدى تأثير الثقافة اليونانية فى نثر عبد الحميد . والجدير بالذكر أنه يصرح فى موضع آخر مما يؤكد أن بداية الكتابة مرتبطة كل الارتباط بالتأثير اليونانى ، فاذا كانت الكتابة قد بدأت بعبد الحميد فكأنها لم تبدأ به الا لأنه الكاتب

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٢ – ٤٦ .

(٢) نقد النثر – لأبى الفرج قدامة بن جعفر – تمهيد فى « البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر – ترجم هذا البحث عبد الحميد العبادى عن الأصل الفرنسى الذى وضعه طه حسين – القاهرة – ١٣٥٧/١٩٣٨ ص ١٠ .

المتأثر بالثقافة اليونانية ، وعلى ذلك تكون الثقافة اليونانية هى التى أطلقت نقطة البدء . ونص كلام الدكتور طه حسين يقول : «ونحن عندما نقول : (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) ، فنحن نعنى كتابة عبد الحميد المتأثرة بالثقافة اليونانية المعتمدة على الترتيب وعلى المنطق ، وكتابة أخرى عنيت بالفن اللفظى والزخرف أكثر من المعنى» (١) .

ونحن وإن كنا لا ننكر تأثير الثقافة اليونانية فى نثر عبد الحميد الا أننا نرى أن من الممكن البحث عن مظاهر هذا التأثير فى غير ما وجده الدكتور طه حسين من قبل فى رسائله . ولكن هذا ليس موضوع بحثنا الآن ، وانما الذى نريد أن نوضحه هو أنه إذا كان لهذه الثقافة اليونانية عند عبد الحميد مثل هذا الأثر الذى شمل الشكل أو الأسلوب والفكرة والمضمون معاً فى نثره . وإذا كانت الكتابة التى بدأت بعبد الحميد ليست الا الكتابة المتأثرة بالثقافة اليونانية إلى جانب ما يظن من أصل عبد الحميد الفارسى فلا يمكن أن تكون نشأة النثر العربى فى عهده — فى أول القرن الثانى — نشأة عربية ، لأنها ليست بمعزل عن الجنسية الفارسية ، ولا بمعزل عن مدارس الأدب اليونانى على وجه الخصوص ، تلك التى كانت منبثة فى الشرق كله كما يقول الكاتب . وهذا القول نفسه ينطبق على ابن المقفع الذى لا شك فى فارسيته ولا شك فى ثقافته اليونانية أيضاً . وفى ذلك يقول الدكتور طه حسين :

«ابن المقفع فارسى من غير شك ، وكان أبوه من عمال الحجاج على الخراج ، وكان مجوسياً . وظل ابن المقفع مجوسياً إلى أول الدولة العباسية ، وكان قد أتقن العربية وتثقف بثقافتها . ولا شك أن حظه كان عظيما من الثقافة اليونانية ، فهو أول من ترجم كثيراً من كتب أرسطو فى المنطق والجدل والقياس والمقولات . فكان إذاً عظيم الحظ من الثقافة العربية واليونانية والفارسية » (٢) . ويمضى الدكتور طه حسين بعد ذلك فى

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦ .

الاستدلال بنماذج من الأفكار الواردة فى رسالة «الصحابة» و « الأدب الكبير» لابن المقفع على أنها من آثار الثقافة اليونانية ، كما يوضح المعانى الفارسية فى «الأدب الكبير» . ولكنه لا يهتم بتأثير الثقافة الفارسية قدر اهتمامه ببيان الأثر اليونانى فهو يرى « أن مثل هذا الكتاب (أى الأدب الكبير) وكتاب الأدب الصغير واليتيمة كان منتشراً فى العهد اليونانى منذ عصر الاسكندر وترجم للعرب منه الكثير أيام العباسيين» فى حين أن المعانى الفارسية لا تكاد تظهر الا فى الباب الأول من «الأدب الكبير» وهو الخاص بعلاقة الانسان بالسلطان ، «لأنه لا يذكر الا صفات الملوك المستبدين ، الذين يمكرون ويمكر الناس بهم . فأخلاق ملوك الفرس والشرق بوجه عام ظاهرة فى هذا الباب» . وأما القسم الثانى وهو باب الصديق ففيه ما يوصى به الفلاسفة من الأمة اليونانية من حسن العلاقة بين الناس والتأديب فى معاملة الأصدقاء» (١) . بل ان الأكثر من ذلك أن ضعف أسلوب ابن المقفع كما رآه الدكتور طه طه حسين يشبه ضعف كتاب اليونان فى فترة نشأة النثر الفنى فى أدبهم ، يقول : «وليس ابن المقفع بدعاً فى هذا ، فكتاب اليونان كانوا على مثل ما كان عليه ابن المقفع من ضعف فى التعبير ، لأنهم لم يتعودوا أداء هذه المعانى من قبل ، فليس على ابن المقفع حرج أن تضطرب لغته وتستعصى عليه» (٢) .

والغريب أن يكون ابن المقفع فارسياً متعصباً لثقافته وتراثه الفارسى إلى الحد الذى ألصق به تهمة الزندقة ثم يكون تأثير الثقافة اليونانية أظهر وضوحاً من فارسيته . فاذا كان ابن المقفع كما يرى طه حسين «يكتب فى أول عهد النثر الفنى بالوجود» (٣) فكيف يكون النثر العربى فى أول عهده عربى النشأة ، وإذا كان ظهور التأثير اليونانى أيضاً عند عبد الحميد على هذا الشكل فى القوة الذى رأيناه ، فكيف يكون النثر العربى كذلك عربى النشأة ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٤٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٥١ .
(٣) المرجع السابق ص ٥١ .

وكأن الدكتور طه حسين وهو يقرر أن النثر الفنى عربى النشأة يعود ويبرهن فى الوقت نفسه على أن نشأته لم تكن عربية ، وأن لليونان على وجه الخصوص أثراً بارزاً وللفرس أيضاً أثرهم فى نشأة هذا النثر ، ما دام النثر لم ينشأ عنده الا فى القرن الثانى وفى عهد عبد الحميد وابن المقفع ، أى فى أول عهد النثر الفنى بالوجود . ولكنه يقول بعد كل ذلك : : «الذين يزعمون أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان ، ولكن ليس معنى هذا أن هذا النثر نشأ بعيداً عن هؤلاء بل كان عربى النشأة ولكنه تأثر بهؤلاء» (١) . هو عربى النشأة ، ونشأته غير بعيدة عن هؤلاء ؟ هذا عن النشأة التى تأخرت إلى أول القرن الثانى ، وأما مرحلة التطور التى تلى عصر النشأة فستأتى عند طه حسين فى آخر القرن الثانى «فازدادت المعانى التى يتناولها .. ولم يكد يأتى القرن الثالث للهجرة حتى كان النثر قد استقام وأصبح ذلولا مطيعاً لأصحابه يؤدون به المعانى المختلفة ، ولم يكد ينتهى هذا القرن حتى كان العرب قد استوعبوا كل هذه العلوم فى النثر»(٢) .

نصل من كل ذلك إلى أنه لا يمكن الجمع — كما أراد الدكتور طه حسين بين أن يكون النثر الفنى عربى النشأة ، وبين أن تكون هذه النشأة فى أول القرن الثانى ، وهناك عبد الحميد وابن المقفع فى أول هذا القرن بأصلهما وثقافتهما التى صورها الكاتب على هذا النحو الذى رأيناه . ومهما يكن من أمر فان ما نراه الآن هو أن الدكتور طه حسين قد عدل فى (حديث الشعر والنثر) عن رأيه الذى رأيناه فى نهاية كتابه (فى الأدب الجاهلى) ، وان كان لم يشر إلى ذلك ، وتركنا حتى الآن أمام رأيين متعارضين فى موضوع واحد ، فالنثر العربى نشأ فى الجاهلية حيناً ، وكانت نشأته فى القرن الثانى حيناً آخر . ولكن أين ذهبت الفجوة الكبيرة بين هذين الزمنين : الجاهلية والقرن الثانى ؟ الواقع أنه لم يقفل هذه الفترة ، فقد تحدث فى هذه المواضع كذلك عما قد يكون من نثر فنى فى عصر صدر الاسلام

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

حتى نهاية القرن الأول أى فى الفترة الممتدة ما بين الجاهلية والقرن الثانى ، يقول :

«فى صدر الاسلام ، ما الذى كان يوجد من النثر (طبعاً قوى فن الخطابة لأسباب الحوار ومحاولة الاقناع ، سواء كان موضوعه الدين أو السياسة أو الخصومات المختلفة . وبالطبع احتاج المسلمون إلى أن يكتبوا وكتب النبى رسائل وكتب الخلفاء من بعده ، ولكن هذه الرسائل التى كانت تكتب كانت مختصرة لا يقصد منها الا مجرد الأداء فى غير تفنن أو اثارة لجمال فنى خاص . ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة جملها صغيرة توشك أن تكون رموزاً ، ليس فيها هذا التفصيل أو المحاولات الفنية التى نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ » (١) .

وهذا يتمشى مع رأيه فى الموضع نفسه أى أن نشأة النثر الفنى كانت فى القرن الثانى ، فهو يرى أن المحاولات التى حدثت فى القرن الأول من أمثلة رسائل النبى عليه الصلاة والسلام ورسائل الخلفاء لم تكن فنيه ، وانما كانت لا تتعدى درجة الأداء . ولكنه لم يذكر شيئاً عن حديث الرسول الذى كان يرى أن من البيان لسحرا ، هل خلا الحديث أيضاً من الفن ؟ وإذا كانت بعض رسائل الخلفاء مختصرة لا يقصد بها حقيقة الا مجرد الأداء ، فهل ينطبق ذلك على جميع هذه الرسائل . ألم تؤثر المعجزة البيانية على هذه الأساليب .هذا التأثير الذى من شأنه أن يعمل على على احداث كتابة فنية تنمو وتقوى وتتطوى ويتسع مداها فى عصر انتشار التدوين الذى شهده عبد الحميد وابن المقفع . هذا فيما يختص بالكتابة ، أما الخطابة فقد عرض لها الكاتب أيضاً فى النص الأخير من كلامه ، ولكن يبدو أن عرض آرائه فى الخطابة كما وردت «فى حديث الشعر والنثر» على آرائه التى وردت « فى الأدب الجاهلى» من قبل يحتاج إلى نقاش آخر

(١) المرجع السابق ص ٢٦ .

- ٣ -

سبق أن رأينا أن الدكتور طه حسين يعتقد فى «الأدب الجاهلى» أن «الخطابة العربية فن اسلامى خالص) ، وأن (الحياة الاجتماعية قبل الاسلام لم تكن – وان غضب أنصار القديم – تدعو إلى خطابة قوية ممتازة) ، فلا نصدق إذاً أن قد كانت للعرب فى الجاهلية خطابة ممتازة ، انما استحدثت الخطابة فى الاسلام ، استحدثها النبى والخلفاء ، وقويت حين نجمت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين) .

مما لا شك فيه أن الخطابة قويت حين نجمت الخصومة السياسية بين المسلمين ، ولكن الذى نبحثه هنا منحصر فى رأى الكاتب فى موضوع النشأة ، ولذلك فان ما نفهمه من هذا النص الأخير هو أن الخطابة نشأت واستحدثت فى الاسلام ، وقد رأينا من قبل ونحن نعرض لرأيه فى الخطابة فى «الأدب الجاهلى» أيضاً أنه لا ينكر وجود الخطباء فى الجاهلية ولكن (خطابتهم لم تكن شيئاً ذا غناء) ، ومن هذا نفهم أن هذا القدر من الخطابة الجاهلية لا يمثل دور النشأة ، وانما هو شىء يشبه التمهيد للنشأة ، لأن النشأة الحقيقية للخطابة العربية عنده انما كانت فى الإسلام . هذا ما رأيناه فى (الأدب الجاهلى» ، ولكننا يجب أن ننظر إليه الآن مرة أخرى على ضوء ما جاء فى «حديث الشعر والنثر» حيث يقول :

«وإذن فالعصر الجاهلى لم يكن له نثر بالمعنى الذى حددته ، ومع ذلك فقد كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن . هذا النثر هو الخطابة ، وليس من شك – إذا فهمنا حياة العرب الجاهلية – أن ما كان يقع بينها من خصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم . فقد كان الخطباء والمحامون ينطقون بلسان القبائل ، ويحرصون على أن يعجبوا السامعين لا ليقنعوهم فحسب ، بل ليثيروا فيهم لذة فنية ، ومتى وجدت هذه الفكرة فقد وجد الجمال الفنى . والخطباء كانوا يقنعون ويحاجون معتمدين فى ذلك على خلب السامعين ، ولكن هذه الخطابة لم يرد إلينا منها

شيء نثق به . وربما كان من السهل أن نتصور هذه الخطابة تصوراً مقارباً ليس دقيقاً عندما نقرأ كتب السير وما فيها من خطابة وأحاديث . كل هذه تعطينا فكرة عن النثر الجاهلي» (١) .

ويتحدث الدكتور طه حسين عن تطور النثر في القرن الأول فيقول : «في هذا العصر نستطيع أن نقول : إن النثر قد وجدت له الأسباب التي مكنته من أن يقوى من جهة ، وأن تنشأ له فنون جديدة من جهة أخرى . أما الذي قوى منه فالخطابة التي كانت موجودة في الجاهلية واشتدت أسبابها ودواعيها في الاسلام» (٢) .

نفهم من هذا أن الخطابة العربية في «حديث الشعر والنثر» قد نشأت في الجاهلية ، بل لقد كانت الخطابة الجاهلية خطابة فنية لا تعجب السامع وتمتعه فحسب ، بل تثير فيه لذة فنية ، ولم تكن الخطابة الجاهلية كذلك في «الأدب الجاهلي» كما رأينا . ولقد جاءت الخطابة الجاهلية في «حديث الشعر والنثر» مزدهرة تثير الجمال واللذة الفنية في حين أن خطابة «الأدب الجاهلي» لم تكن شيئاً ذا غناء ، كما كانت منقطعة الصلة بالنزاع القبلي الذي (يدعو إلى الحوار والجدل ولكنه لا يدعو إلى الخطابة) .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل ان الدكتور طه حسين يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر» ، فلا يكتفي بنشأة الخطابة في الجاهلية وإنما يخطو خطوة أخرى على طريق البيان العربي فيزي نشأة شيء من النقد في الجاهلية يرعى شأن الخطابة ويوجه مواقف الخطباء ، فيقول :

«ان العرب من نهاية العصر الجاهلي أخذوا يخضعون صناعة الكلام لنقد أولي ، ولكنه في أغلب الأحوال سديد ، لأنهم كانوا يعولون فيه على سلامة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

الذوق . ولقد بلغ بهم الأمر أن استكشفوا عيوباً فنية فى النظم ، ووضعوا من النصح ما يفيد كلا من الشاعر والخطيب فى صناعته ، فهم مثلا يحذرون الشاعر من التورط فى عيوب معينة قد تلحق القافية ، ويعرفون كيف يؤاخذونه فى حالى الغلو والتقصير ، ثم هم يتقدمون إلى الخطباء أن يراعوا مقتضى الحال ، فيوجزو أو يطيلوا على وفق المقام ، وأن يفتتحوا خطبهم بحمد الله والثناء عليه ، ويوشحوها بآى من الذكر الحكيم . وكتاب (البيان والتبيين) حافل باقتباسات من الشعر والنثر ، كلها تدور حول هذه الصورة الموجزة لأسلوبهم فى النقد ، وكلها تصعد إلى أواخر العصر الجاهلى والقرن الأول للهجرة» (١)

لا يهمنا فى هذا الرأى بطبيعة الحال سوى ما يتصل بالخطابة من ناحية وبالعصر الجاهلى من ناحية أخرى . فالعرب كان لهم من نهاية العصر الجاهلى نقد أولى يفيد الخطيب فى صناعته وفى مراعاته لمقتضى الحال ، وإن دل هذا على شىء فانما يدل على رقى الخطابة التى قام عليها هذا النقد ، وإذا كان النقد نفسه نقداً أولياً ، فهذا لا يعنى أن الخطابة ضعيفة أو أولية ، لأن مرحلة النقد تتبع مرحلة الانشاء ، وإذا كان النقد قد نشأ على أى وجه من الوجوه ، فليس يعنى هذا سوى أن الخطابة قد قطعت مرحلة من النضج تستتبع وتستوجب نشوء هذا النقد .

— ٤ —

عرض الدكتور طه حسين مرة أخرى لموضوع نشأة النثر فى محاضراته بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، وهى المحاضرات التى ضمت إلى كتاب (من تاريخ الأدب العربى — الجزء الثانى) الذى جمعت فيه مجموعة من أبحاثه وقسمت حسب العصور الأدبية المختلفة . (٢) ومهما يكن من أمر فنحن نسمع فى احدى هذه المحاضرات قول الدكتور طه حسين (٣) :

---

(١) نقد النثر — تمهيد ص ٤ .

(٢) كنا نود لو قدم الدكتور طه حسين الكتاب بمقدمة يوافق فيها على ما نشر له به من محاضراته بقسم اللغة العربية بجامعة القاهرة ، وذلك بالاضافة إلى المقدمة التى كتبها الدكتور شكرى فيصل — الجزء الأول — (بيروت ١٩٧٠) ص ٥ — ٧ .

(٣) المحاضرات بتاريخ ٨ — ١١ — ١٩٤١ .

والمحقق أن العرب فى جاهليتهم لم يكتبوا نثراً فنياً ، والصحيح أيضاً أن العرب فى جاهليتهم عرفوا ألواناً من البلاغة فى محاوراتهم وخصوماتهم وما نسميه خطابة وأحاديث» (١) .

فالكاتب هنا يفرق بين الكتابة والخطابة ، فيقرر أن الجاهليين لم يعرفوا الكتابة الفنية ، وان كان لهم من النثر فن قولى يتمثل فى الخطابة وفى غيرها ثم يتابع تطور الكتابة خلال القرن الأول فيرى أن النثر الفنى اسلامى ويرى أن كثرة تمرين الكتاب الذين كانوا يكتبون بين يدى النبى وتعودهم «سهل أموراً كثيرة بعد .. فاذا انتباههم يتجه إلى العناية بما يكتبون والعناية الفنية دون غيرها» . (٢) ثم يتابع هذا التطور لدى الكتابة فى أيام الخلفاء الراشدين ليخلص من ذلك إلى قوله : «كما نشأت الخطابة حديثاً بين فرد وجماعة ثم تطورت حديثاً موثراً فيه فن ومتعة كذلك نشأت الكتابة حديثاً بين الكاتب والقارىء البعيد .. وكان شاقاً أول الأمر ثم مرن ، وأخذ الكاتب بعد أن تمت له المرونة يقصد إلى أن يلتمس الزينة والفن ، وأن يجدد فى كتابته ، وأن يحدث إلى جانب الأداء المادى لذة فنية يكون لها أثرها فى تأدية الغرض..فلم يعد يكتفى الانسان بمجرد البناء ،بل أصبح يبغى الزخرف والزينة والتسامق والتجديد .. وكذلك الأمر فى التصوير وغيره» .

والذى يبدو لنا الآن أن الدكتور طه حسين قد عدل عن رأيه الأول فى نشأة النثر الفنى فى الجاهلية ، وعن رأيه الثانى فى نشأته فى القرن الثانى الهجرى ، وأراد فى هذا الرأى الثالث أن يرجع هذه النشأة فى العصر الاسلامى الأول . وهو إذ يرى أن الحياة الاسلامية بما أتاحته للعقل العربى من رقى وثقافة ، قد أنشأت النثر الفنى فهو يقصد بذلك الحياة الاسلامية

---

(١) من تاريخ الأدب العربى – الجزء الثانى – بيروت ١٩٧١ ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٢ – ٤٣ .

بعد الفتوح (١) . وبذلك تقدمت نشأة النثر الفنى فى الأدب العربى عند الدكتور طه حسين قرناً كاملا من الزمان قبل القرن الثانى الهجرى ، ولم يقف الأمر عند حد النشأة ، وإنما تعداه إلى لون من ألوان التطور أصاب النثر فى القرن الأول ، فلم يصبح أدب رسائل فحسب بل شمل كذلك النثر القصصى ، وبذلك شهد القرن الأول «وجود نوعين» أو «فنين من النثر» (٢) .

ويتأكد كذلك انصراف الدكتور طه حسين عن القرن الثانى الذى كان يرى فيه منشأ النثر العربى ، وذلك حين يصل فى عرضه لتطور النثر إلى سقوط الدولة الأموية ، تلك الدولة التى سقطت فى فترة شهدت نمو النثر وتطوره ، وفرق كبير كما رأينا بين مراحل النمو والتطور وبين مرحلة النشأة ، يقول :

«لو فرضنا أن الدولة الأموية لم تسقط وأن أبا مسلم فشل لسبب ما وتأخر سقوط الدولة الأموية خمسين أو عشرين سنة ، فما الذى كنا نلاحظه فى الحياة الأدبية لو حصل هذا ؟ أكان وجد هذا النثر أو لم يكن يوجد ؟ بطبيعة الحال إذا نظرنا إلى التطور الذى نقص أطرافاً منه فسنرى أن النثر كان سيستمر فى نموه ، لأن الحسن البصرى كان يدرس فى العراق نثراً قبل سقوط الدولة الأموية ، وكذلك ابن سيرين وغيرهم من الذين يتحدثون فى التاريخ أو يتناظرون فى مسائل الدين .. فلو أن الدولة الأموية لم تتغير ولو أن مركز الحضارة والخلافة لم ينتقل من الشام إلى العراق لما أثر هذا بحال من الأحوال فى وجود هذا الفن الأدبى الذى نشأ فى الحياة العربية ، واحتضنته هذه الحياة فى تطوره ونموه حتى وصل إلى ما وصل اليه» (٣) .

إذن فالحياة العربية الاسلامية فى القرن الأول قد شهدت نشأة النثر الفنى

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٥ – ٤٦ .

وشهدت كذلك تطوره ونموه ، وأما الفترة التى عاش فيها عبد الحميد وكذلك ابن المقفع فى القرن الثانى فلم تكن ذات أثر فى النشأة وان كانت ذات أثر فى التطور المستمر . يقول الدكتور طه حسين :

إذن فالحياة العربية الاسلامية فى القرن الأول قد شهدت نشأة النثر الفنى وشهدت كذلك تطوره ونموه ، وأما الفترة التى عاش فيها عبد الحميد وكذلك ابن المقفع فى القرن الثانى فلم تكن ذات أثر فى النشأة وان كانت ذات أثر فى التطور المستمر . يقول الدكتور طه حسين :

«والشىء الواضح أيضاً أن عبد الحميد لم يكن كاتباً للعباسيين ، بل للأمويين ، وقتله العباسيون عند سقوط الدولة . وليس النثر ناشئاً عن سقوط دولة وقيام دولة ، ولم ينشأ لأن قوماً غير عرب تعلموا العربية وأتقنوها . ولكن النثر نشأ لأن أمة بدوية تحضرت ، ولأن طبيعة الحضارة أن يوجد فيها النثر سواء تعلم الفرس العربية أم لا ، وسواء أعرب هؤلاء الفرس أم لا .. فلا بد لهم أن يكتبوا ما داموا تحضروا ، وما دامت الحضارة تقتضى النثر» (١) .

وهنا يعود الدكتور طه حسين إلى موضوع النشأة العربية للنثر ، وقد رأيناه يعرض له من قبل، فيؤكده فى صورة مباشرة وينقضه فى صورة غير مباشرة حين يقرن نشأة النثر العربى بالقرن الثانى وتأثير اليونانية فى عبد الحميد وابن المقفع ، وتأثير الفارسية أيضاً . أما الآن فالدكتور طه حسين ينفى الأثر الأجنبى بشدة فى هذه النشأة ، وان كان هذا بطبيعة الحال لا يعنى نفى التأثير الأجنبى فى مراحل التطور .. يقول :

«لابد من العدول نهائياً عن التفكير السخيف فى أن العرب أخذوا النثر عن الأمم الأجنبية ، فهم لم يأخذوه عن أحد .. بل أنشأته الحياة العربية كما أنشأت هذه الحياة شعرهم كذلك .. فالأمة العربية تأثرت تأثراً

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

لا شك فيه بالأمم المغلوبة لأنها أعرق فى الحضارة ، ولكن فرق بين أن تكون تأثرت بالحضارات ، وبين أن تكون استعارت طبيعةأمة أخرى وفناً من فنونها» (١) .

ويعود الدكتور طه حسين هنا — وهو ينفى أثر الحضارات الأجنبية بشكل عام فى نشأة النثر العربى — فينص على نفى التأثير الفارسى على وجه الخصوص . أما التأثير اليونانى ، فلا ينص عليه وإنما يشمله النفى فى صورته العامة . يقول : «وهنا يظهر الفرق بين أثر اليونان فى روما وأثر الفرس فى العرب ، فالعرب لم يحتاجوا إلى تقليد النثر الفارسى لأنه غير معروف ولا الشعر الفارسى لأنه غير موجود ، على حين أن اللاتين الرومان كانت لهم نماذج من النثر والشعر اليونانيين فقلدوهما واتخذوا منها اماماً ، فالعرب تأثروا بالحضارات الشرقية ، ولكنهم لم يستعيروا فناً ما من هذه الفنون» (٢) .

والنتيجة التى يصل اليها الدكتور طه حسين هنا فى هذا الموضع هى توقيت نشأة النثر الفنى فى العصر الاسلامى ، والعصر الاسلامى هو القرن الأول كما رأينا ، إذا كان القرن الأول يمثل فترة طويلة من الزمن ، فالذى يمكن أن نراه من رأى الدكتور طه حسين أن النشأة كانت فى الشطر الأول منه ، وليس معنى هذا أن النشأة قد تحددت فى سنوات معينة ، وإنما المقصود أنها كانت فى المرحلة الأولى منه ، وأن المراحل التالية قد شهدت خطوات التطور والنمو التى تبعت خطوة النشأة . والجدير بالذكر أن الدكتور طه حسين وان كان يمزج فى حديثه عن النثر بين الخطابة والكتابة فى أكثر الأحيان الا أنه يقصر موضوع النشأة وتأريخها على الكتابة الفنية وحدها دون الخطابة ، وهذا واضح من قوله :

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

«وإذا كانت الخطابة قد سلكت طريقها التى لانعرفها، فان النثر قد سلك طريقاً يخيل الينا أننا نعرفه .. وسنرى أن العصر العباسى لم ينشىء النثر العربى بل ربما أغناه وقواه ، والنثر العربى الفنى نشأ فى البيئة العربية الخالصة ثم تطور كما تطورت الفنون العربية المختلفة من نثر بسيط جداً يكثر فيه التكرار ، ويقصر عن تأدية الأغراض بدقة إلى نثر ينمو ويسهل ، ويمكن أن تؤدى به الأغراض من غير مشقة ولا عنت ، إلى نثر يقصد به اقناع السامعين والقارئين . وممكن أن نتتبع هذا النثر منذ هاجر النبى إلى المدينة حتى أوائل القرن الثانى ، فنراه يتطور تطوراً طبيعياً لا تكلف فيه ، حتى إذا اشتد الاتصال وثب وثبة كبرى هى التى خيلت إلى الباحثين أنه جاء من الشرق لا من بلاد العرب» (١) .

هذا هو عرض القضية الذى يلخص فى الوقت نفسه النتيجة التى وصل اليها الدكتور طه حسين فى هذا الموضع من مواضع آرائه فى نشأة النثر العربى ، وقد جاءت هنا فى القرن الأول . وهذا القرن يتوسط فترتين ، كانت كل منهما فى بعض الأحيان كما رأينا مهداً لنشأة النثر العربى ، أما الأولى فهى الجاهلية ، وأما الثانية فهى القرن الثانى .

— ٥ —

لكننا نريد أن نتلمس بعد كل هذا حقيقة الأمر . والذى يبدو لى أن الحقيقة تتضح إذا ما رجعنا إلى القضية فى بساطتها من غير تعقيد . والبساطة تحتم أن نأخذ القضية ككل ، وننظر إلى النثر باعتباره نثراً دون فصل بين الخطابة فى جانب والكتابة فى جانب آخر . ذلك أن الخطابة نثر لا ريب فيه ، فلم ينظر اليها القدامى على أنها شىء مستقل ، وكل ما يفرق بينها وبين الكتابة هو الطريقة أو الأداء ، فالأولى قول يقال ، والثانية قول يكتب ، وكثيراً ما تكتب الخطبة فتشبه الرسالة الفنية ، أو تلقى الرسالة

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

القاء فتشبه الخطبة ، فالرسالة والخطبة نثر ، والفصل بينهما فى معرض النثر العربى بوجه عام أمر لا يستلزمه المنطق ، ولا يتفق مع طبيعة الأشياء . ولماذا نذهب بعيداً وأبو تمام يقول :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

ليست هذه صورة خيالية لأبى تمام ، ينسب فيها الخطابة إلى النثر ، وانما هى الحقيقة التى لا مجاز فيها ، أو الواقع الذى لا شك فيه . ذلك أن تقسيم الكلام إلى الشعر وكتابة وخطابة أمر يحمل من التعسف الشىء الكثير ، وانما الكلام شعر ونثر . وأما أن ينقسم النثر بعد ذلك إلى أقسام فهذا شىء آخر . وفى ذلك يقول صاحب نقد النثر الذى مر بنا منذ قليل .

«واعلم أن سائر العبارة فى كلام العرب إما أن يكون منظوماً وإما أن يكون منثوراً ؛ والمنظوم هو الشعر ، والمنثور هو الكلام» (١) .

ولما كان الشعر ينقسم أقساماً كان للنثر كذلك أقسامه ، ولذلك يقول : «وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة ، أو ترسلا ، أو احتجاجاً ، أو حديثاً ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه» (٢) . ويقول ؛ : «ثم إنه يخص الخطبة والترسل أشياء نحن نذكرها »(٣) . فنرى هنا أنه يجمع بين الخطابة والترسل فى تناول خصائصهما ، لأن الخطابة نثر ، أو هى قسم منه ، ولكنها ليست قسما مستقلا من أقسام الكلام .

وقد عرض الدكتور زكى مبارك لآراء بعض النقاد القدامى فى الشعر والنثر ، ومنها رأى أبى هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين — والصناعتان هما الشعر والنثر — وذلك فيما يختص بالفرق بين الخطب والرسائل من حيث كونهما قسمين من أقسام النثر ، فيقول :

(١) نقد النثر ص ٧٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٩٤ .

«وأبو هلال العسكرى أكثر دقة من الثعالبى فى الكلام على الشعر والنثر ، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما الا أن الخطبة يشافه بها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة ، فى أيسر كلفة ، ولا يتهيأ مثل ذلك فى الشعر من سرعة قلبه واحالته إلى الرسائل الا بتكليف وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلون شعراً الا بمشقة » . ثم يقول : «وهذا صريح فى أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد ، أو فنان متقاربان يقابلهما الشعر . فالكلام ينقسم إلى قسمين : منظوم ومنثور ، والمنثور منه الخطب والرسائل . وقد عرض القلقشندى للتعليق على كلمة أبى هلال فى صبح الأعشى — حـ١ ص ١١٩ — فقال «إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها ، يحتاج الكتاب اليها فى صدور بعض المكاتبات ، وفى المبيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناشير» . ومن هذا يتبين أن المسيو مرسيه تكلف شططاً حين زعم أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أصول أساسية : هى النظم والنثر والخطب ، ليصح له أن يحكم بأن الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة ولم يعرفوا فن النثر . والمعقول أن الذى يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة انشاء الرسالة . وقد بقى صدى خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لا تلقى عادة الا فى المواسم أو عند كبريات الحوادث ، أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة إلى قبيلة على أيدى الرسل ، وكانت فى الأغلب مما يكتمه المرسلون» (١) .

لا نريد أن نعرض الآن لموضوع الرسائل ، ولكنا نريد أن نؤكد نثرية الخطابة ، فإذا كانت الخطابة نثراً ، وكانت الخطابة فناً من فنون الأدب

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع — الجزء الأول — القاهرة — بدون تاريخ — ص ٢٤ — ٢٥ .

التى عرفها الجاهليون ، فهذا يكفى ليكون النثر العربى قد نشأ فى العصر الجاهلى ، وقد تبع هذه النشأة على مدى العصور مراحل مختلفة من الرقى والتطور ، ولكن مراحل الرقى كما عرفنا شىء ومرحلة النشأة شىء آخر ، وقد شهد العصر الجاهلى هذه المرحلة بما لا يدع مجالا للشك ، ويكفى أن نرجع إلى البيان والتبيين لنرى ما رواه الجاحظ من تصوير لمكانة الخطباء فى الجاهلية وارتفاع هذه المكانة على مكانة الشاعر . يقول :

«قال أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ويباهيهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر» . (١) ويقول أيضاً : «كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج ، لرده مآثرهم عليهم ، وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء ، صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر» (٢) .

وبذلك نربط آخر الكلام بأوله ، فقد عرضنا فى أول البحث لعوامل ازدهار الخطابة فى الجاهلية وصور ازدهارها ، والآن نرى كيف ارتفعت مكانة الخطيب على الشاعر . فإذا كان الخطيب فى هذه المنزلة ، فهذا لا يعنى سوى رقى الخطابة ، ورقى الخطابة يوجب وجودها ، ووجودها يثبت نشأة النثر الفنى فى العصر الجاهلى . وينبغى أن نؤكد كذلك أن ضياع نصوص هذه الخطابة لا ينفى هذه النشأة ولا يؤخرها عن هذا العصر ، فقد أجمعت الآراء — ومنها رأى الدكتور طه حسين — أن هذه النصوص المروية تقدم لنا صوراً من النصوص الأصلية الضائعة . وقد قال الرقاشى

---

(١) البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – الطبعة الثالثة – القاهرة ١٣٨٨/١٩٦٨ الجزء الأول ص ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق – الجزء الرابع – ص ٨٣ .

ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضاع من المنظوم عشرة .

ولقد عرف العصر الجاهلى صوراً أخرى من النثر كسجع الكهان والأمثال والقصص ، ولكننا لا نستند اليها بالدرجة الأولى ، لأن الخطابة الجاهلية أقوى دلالة على وجود النثر الفنى فى شكل كاف لتصوير مرحلة النشأة . وأما القرآن الكريم فهو دليل غير مباشر على نشأة النثر العربى فى الجاهلية ، والدليل المباشر الذى يتمثل فى الخطابة أقدر على النهوض بالدلالة ؛ لأنه يستمد قدرته كما قلنا من إشارته إلى نشأة النثر اشارة مباشرة من غير واسطة .